في عالم الكتب: نقد وتعريف

الزنابق الحمر لطاغور

ترجمة الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

من دلائل النهضة الحديثة في مصر، وفي الشرق العربي، أن يتحرك الأدباء إلى نقل نفائس الكتب عن لغاتها التي صدرت بها. ولم يكن الأمر كذلك منذ عهد قريب، بل كان يسعى الناقل إلى الإنجليزية أو الفرنسية يطلع فيها، وينقل عنها المؤلفات الفارسية أو الهندية أو الصينية. ونحن نعلم أن الترجمة مهما تكن أمينة فلن تقوى على نقل الآثار الأدبية بدقة تامة، ونعني بالآثار الأدبية الشعر والتمثيليات. وعلة ذلك أمور كثيرة، أهمها خصائص كل لغة مما يجري فيها من تعابير، وليس لها مثيل في اللغات الأخرى. وهذا هو السبب في اختلاف التراجم الفرنسية عن الإنجليزية للأصول اليونانية مثلا. بل لقد تختلف الترجمة في اللغة الواحدة تبعا لاختلاف ذوق المترجمين ومقدار فهمهم للأصول، ولذلك تتعدد التراجم للنص الواحد

مما لا شك فيه إذن أن الناقل يبعد عن الأصل بعض الشيء، فإذا جاء ناقل وترجم الأصل عن لغة أخرى فقد ابتعد خطوة أخرى عن الأصل. ولذلك كانت الترجمة عن الأصل رأسا أفضل من الترجمة عن الترجمة

ويسرنا أن نقرأ تمثيلية الزنابق الحمر للشاعر الهندي رابندرانات طاغور معربة رأسا عن الأصل البنغالي، بقلم الأديب أحمد عبد الغفور عطار الذي يقول في كلمته يقدم المسرحية: «وقد حاولت جهد المحاولة أن أنقل جو طاغور وروحه وفنه وبساطته، وأقترب في أسلوبي العربي من أسلوبه في البنغالية. فإن كنت قد وفقت فالحمد لله، وإلا فعذري إن كنت أمينا في النقل والترجمة، وبذلت غاية الوسع، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها

والمترجم من مكة المكرمة، ولكنه درس في مصر؛ ولذلك لا يحس في أسلوبه أو عبارته أي غرابة عن اللغة المصرية. وهو يعرف اللغة البنغالية. وحدثني أنه استغرق في ترجمة هذه المسرحية ثلاث سنوات مع أنها صغيرة الحجم، وهذا شأن الفنان الذي يستغرق في فنه ويتأنى في عمله والمسرحية تعبر عن روح الهند وفنها الأصيل الذي يختلف عن غيره من الفنون في الدول الأخرى

وهي رمزية لا تمثل الواقع، ولكنها تصور مع ذلك الحياة الإنسانية أبلغ تصوير. فلا يوجد إقليم اسمه «ياكشا» ولا يعبر عن الملك بصوت دون أن يرى

يصور طاغور في هذه المسرحية المجتمع البشري، ويصور العلاقة بين الملك والشعب، وبين الرجل والمرأة، وبين العمال والرؤساء، ويصور منزلة هذه الأشياء التي يتعامل بها الناس ويتداولونها، كالذهب والخمر والشعر والغناء والزهور

فالملك رمز الظلم، والمرأة رمز السحر، والعامل رمز الدأب، والذهب رمز القوة، والخمرة رمز النشوة، والزئبق الأحمر رمز الحب والخوف

تبدأ المسرحية بغلام عامل يحفر الأرض يخاطب «ناندني» المرأة الجميلة الفاتنة رمز السحر

كيشور: ألديك أزهار كافية يا ناندني؟ لقد أحضرت

أو يشذ عنه، بعد أن فرغ من خطبته الجامعة تلا القسم ورددوه من ورائه الملايين في صدق وعزم، ونقاء طوية، وعاهد الناس أنفسهم على الثبات على هذا المبدأ، كما أشهدوا الله على أنفسهم، ورجو الله أن يكون لهم خير نصير، ومن ينصره الله فلا غالب له.

لك بعضها ، وأكثرت من بعض الألوان

نانديبى — كيشور ، انطلق ، تحرك ، عد إلى عملك ، أسرع ، أرجو أن تعود وإلا تأخرت

كيشور — يجب أن أختلس جزءا من وقتى الذى أنفقه فى الحفر بحثا عن الذهب ، لأحفر من أجلك حتى أحضر لك الأزهار

نانديبى : ولكنهم سيعاقبونك إذا علموا بما صنعت

كيشور : قلت : يجب أن تحصلى على زنابق حمر . تالله ما أعظم سرورى لندرتها فى هذا المكان !

بهذا المطلع البديع يستهل طاغور مسرحيته . فهذه الزهور نادرة ، ولا يعرف سر مكانها إلا هذا الشخص العامل . وهى نادرة ندرة الذهب الذى يحفر المئات منهم الأرض للحصول عليه . ليقدموه إلى الملك ، وإلى أصحاب السلطان . وليس لهؤلاء العمال الحفارين أسماء إلا فيما بينهم وبين أنفسهم . أما فى نظر رؤسائهم ، فلا يعرفونهم إلا بأرقام . إنهم « نمر » لا أكثر . فهذا الحفار يشق فى الأرض باحثا عن الذهب ، ولكنه غير راض عن عمله ، بل ساخط عليه ، على حين يقبل باحثا عن الزنابق حتى يستطيع تقديمها هدية إلى نانديبى . فترضى بذلك نفسه

أما الملك وأعوانه ، فإنهم يدفعون الناس للبحث عن الذهب ، لأنه الوسيلة لاستعبادهم ، مع أن الذهب شئ « ميت » لا جمال فيه . وانظر إلى الحوار بين نانديبى وبين الأستاذ الفيلسوف

نانديبى : يحيرنى أن أرى مدينة بأسرها تدفع رأسها فى التراب دفعا ، وتنقب بكلتا يديها فى الظلام . أنتم تحفرون النفق فى العالم السفلى ليل نهار ، وترجعون بثروة ميتة أودعت الأرض منذ أجيال فصائتها

الأستاذ — نحن نتهل إلى شيظان هذه الثروة الميتة ، وإذا استطعنا استعباده رقد العالم تحت أقدامنا دون عناء

نانديبى — أهذا تخبئون مليككم خلف حائط من الستار المتم ؟ أخوفا من أن يكشف الناس أنه إنسان ؟

الأستاذ — كما أن لشبح ثرائنا الميت بأسا شديدا مخيفا فإن لشبح الملكية الغارق فى الضباب بأسا أشد وأقوى . إنها بقواها غير البشرية ترعب الناس

نانديبى — كل ما تقوله كلام نسجته الصنعة وزوقه الخيال

الأستاذ — إنه صنعة زوقها الخيال . ولئن كان العارى أسرع فهما وتصديقا ، فإن الملابس المصنوعة هى التى تستر ما فى أجسادنا من عيوب ، وتخفى ما نود كتمانه ، وهى بعد تحددنا . لشد ما يعنينى أن أناقشك الفلسفة !

نانديبى — هذا غريب منك أنت الذى أتخذت وكرك فى الليل والنهار بين كتلة من الصفحات الصفر الشاحبة مثل حفاريك الذين ضلوا فى جوف الأرض . إنك تضيع وقتى سدى

هذه عبارات سهلة ولكنها تعبر عن فلسفة فى غاية العمق . إنها قصة الإنسانية التى ذهبت فى الحضارة شوطا بعيدا ، فأصبحت تصنع كثيرا من الصناعات لا تقوى على المعيشة بدونها ، بل أصبحت تعبدها وتعبدها . الحق أن الإنسان المتحضر عبد لآلاف الأشياء التى يستعملها ، والتى يقتنيها بالمال ، كالمسكن وما فيه من أدوات ، وهذه الملابس المعقدة ، وسائر المقتنيات الكثيرة التى تزحم بها أنفسنا فى هذه الحياة . ومن أجل هذه المقتنيات ، والسبق فى الحصول عليها ، أخذ الناس يتسعبد بعضهم بعضا بالعسف والإرهاب ، واستعمال السيف والسوط ، حتى نزل الرعب فى القلوب ، وسرى الخوف فى أوصال العباد . ولو تأملوا لرأوا أن حكامهم لا حول لهم ولا قوة ، وأنهم بشر كسائر البشر

ويحدثنا طاغور عن فلسفة الحب . إنها فى نظره جاذبية طبيعية بين الرجل والمرأة ، لا يمكن أن يعرف سرها ، أو يعلل أمرها . لا يمكن إرجاع الحب إلى سبب معين ، فالصلة

بين الرجل والمرأة ، واتصال أحدهما بصاحبه ، يرجع إلى الحظ . وإذا كانت ناندبى قد اختارت الزنابق الحمر دون غيرها من الألوان ، ودون غيرها من الزهور كالياسمين والسوسن ، فذلك لأن حبيبها « رانجان » يدعوها « الزنبقة الحمراء » وهى كذلك تحس أن لون حبه أحمر كهذا الأحمر الذى يطوق جيدها

وللألوان فلسفة . ولكل شئ معنى ودلالة

وتختلف الدلالات باختلاف نظرة الناس . فهذه ناندبى تفهم من الزنبقة الحمراء معنى الحب . ولكن « جوكيل » وهو أحد الحفارين يفهم منها معنى آخر ، فهو حين يرى جيدها وقد تدلى منه الزنبق الأحمر يقول لها « إنك تظهرين لى كشعلة من اللهب القانى يمجها الشيطان »

حقا ما أعجب طاغور ! إنه يسطر مسرحيته بالألوان كما يفعل الرسام . إنه يريد أن يحلى جيد الملك بإكليل من الزهر الأبيض ، والبياض رمز الموت ، والجمرة رمز الحياة . وإذا كان الملك يجمع الذهب ، ويستمتع بلونه وتوهجه ، فإن لونه ميت كالذهب نفسه ، أما لون الزنبق فحى لأن الزهر حى

يفتن الذهب الناس لأنه رمز القوة ، ولكنها قوة وهمية ، لا يمكن أن يشترى بها الإنسان الحب ، وهو سبيل السعادة . وفى ذلك يقول صوت الملك معترفا لناندبى

« كل ما أملك أثقال ميتة ، وحطام أصم . لا الوفرة فى الذهب بمستطيعة أن تخلق جريئا ، ولا الزيادة فى القوة بقادرة أن تهب الشباب .. أنا أستطيع أن أحرس بالقوة التى أملكها ، ولكن ... آه ، لو كنت أملك شباب « رانجان » لحررتك ، ثم تشبثت بك ، وأخذتك بين أحضانى بعنف . إن وقتى ينفق فى عقد الجبال المبرمة ، ولكن وا أسفاه ! كل شئ يمكن أن يحفظ بإيثاقه إلا السرور والمرح فإنهما لا يوثقان »

وإذا كان الملك شقيا بذهبه وقوته ، ولا يجد فيهما عزاء أو تسلية ولا ترويحا للنفس ، فإن الشعب يلتمس الراحة من الكدح والدأب فى العمل بالنشوة التى يجدها فى الخمر . وكل ما يؤدى إلى النشوة فهو خمر . ففى الطبيعة خمر ، والشراب المعروف خمر يبعث أيضا إلى النشوة

سئل « بيشو » وهو فيلسوف وشاعر من أتباع ناندبى عن السبب الذى يدفع الناس إلى الشراب فأجاب :

« وسعت رحمة الله كل شئ ، وستتسع رحمته لمن يشربون قليلا فيعفو عنهم . لقد خلقت أذرعنا — نحن الرجال — لنبذل أقصى ما وضع فى عضلاتنا من خمر القوة ؛ أما أذرعكن — أيها النساء — فقد خلقت لتقديم نبيذ المناق . إن كان فى هذا العالم جوع يدفعنا إلى العمل والكدح فإن فيه أيضا اخضرار الغابة ووهج الشمس الشرقة ، وكلاهما يجعلنا تملين إذا ما نادتنا أيام العطلة »

قالت محدثته : « أتسمى كل هذه الأشياء خمرا ؟ »

فأجاب بيشو : « نعم خمر الحياة بنبوع من اللذة والنشوة لا ينضب ولا يفسد . اسمعى شكاتى : جئت إلى هذا الكان مدفوعا إلى العمل والسطو ليلا على العالم السفلى . إن نصيبى الذى أستحقه من الخمر الطبيعية تلقاه عبوديتى للطبيعة قد حرمت منه ، ولهذا أجد إنسانى الباطن يتشهى الخمر الصناعية ليتخفف من تعب النهار »

وأحسب أنا وقد ارتفعنا إلى هذه الآفاق العليا من فلسفة الحياة ، لا يعنينا أن نعرف كيف سارت المسرحية وكيف كانت خاتمة الملك ، لأن الحياة دوامة عظيمة تبتلع فيها كل شئ ، وتنقلب فيها الأشياء ، فتعلو تارة ، وتهبط تارة أخرى ، وتفقد قيمتها ، ويبتلعها هذا الغول الهائل الذى يسمى الزمان

أحمد فؤاد الأهوانى